

حاكِمة يوسف السنفاز

بِسمِ اللهِ الرَّحمٰن الرَّحيم

- برقيات من تائِهة-

تصميم: ميار الورفلي

تدقيق: سُليمة الخطابي

المقدمة

مرحبًا يا فصيح، مرَّت أيام وشهور
وسنين وتلك الرسائل ضائعة
تبحث عن مُستلمها؛ فمرُّ حبًّا...
هذه التائهة ليست إلا شخصًا
أحاط به الظّلام وفقدَ نفسه
بين نوائب الأيام.

إهداء

خططتُ كلمات هذا الكتاب بأناملٍ تنزف دمًا،
أهدي كل برقية فيه إلى أحد ما، لربما إحداها لك
أيّها القارئ!

طلاسم لعينة

أشعر بدوامة في ذهني، أشعر أن العالم يدور بي وأنا أتخبط داخله، توجد أصواتُ مزعجة تكاد تفقدني سمعي، وأنفاسي تضيق شيئا فشيئا، صرتُ لا آرى ما يجري حولي وكأنه ضبابُ أصاب عينيّ وأنا وسط مدينة مظلمة، أصابني الوهن، بدأتْ قدماي تتلكأ وخطواتي تثقل وكأنني شُللت، فقدتُ التحكم في جسدي، لم أشعر بشيءٍ سوى سقوطي والتقاط الأرض لجثتي بقسوة، بتُّ على فراشٍ بالٍ، لم يعد الإنعاش يفيدني، إنني حقًّا ميتة سريريًّا...

مرَّتِ السنوات وهي راكضة حاملة بين كفيها عمري وشبابي ولم أشعر بها البتة؛ فأنا لم أستيقظ قط!

حتى تغير كلَّ شيء حين أذن ربُّ العباد له بأن يتغير، فسخّر لي بعضًا من عباده لينكشوا تراب أسوار المقابر فيجدوا بين ثناياها صورة لي والبعض من ملابسي محاطةً بإبرٍ وطلاسم، وهنا كتب الرحمن أن يُفك أسرُ روحي، أجل فُكَّ سحري ولكن ماذا عنكم؟
أيعقلُ أن تكونوا بشرًا؟!
تدمرون حياة أبرياء بطلاسم منها تُغرقون وآخرى تدفنون، كيف تقتلون شخصًا وهو على قيد الحياة؟
فما دافعكم؟
فقط حقد وضغينة أعمت عيونكم وجعلتكم تكفرون بربكم!
جزاكم الله بما عملت أيديكم وجعل قعر جهنم مسكنًا لكم...

أين أحلامي؟

قمة الأسى أن تحلم لغيرك، أن ترى أشياء تسعى إليها منذ كنت صغيرًا يسوقُها غبي لمن لا يستحقها، كلُّ صورة بنيتَها وكانت الدافع الوحيد لك تدمرت فقط لمعتقداتٍ غبية والكثير من العنصرية.

ذِكراه

ما لم تجربهُ لا تحسبنه هينًا، ما لم تجرب سماع صوتَ أحدٍ تحبه ورؤيته يدور بين زوايا المنزل، تستمع لضجيجه وضحكاته، ترى شجاره معك على أمورٍ هينة ثم يضحك بتهورٍ قائِلاً: كنتُ أُمازحك، وبعد كل هذا تكتشف أن هذه الأحداث انتهت، وهي تدور فقط في ذهنك؛ لأن ذاك الشخص غطاه الثرى واحتضنته الأرض في جوفها.

فلا تستهنْ بدمعةِ يتيم ولا تسخر من مشاعر فاقد، فمهما بدا لك ضاحكًا فإن لوعة الفقد ستظل غصة في فؤاده وندبةً لروحهِ لن تشفى.

بأي ذنبٍ قتلت؟

كثيرًا ما تجتاحني رغبة في البكاء على أحلام حضرت لِلفظها أنفاسها الآخيرة، رأيتهم يؤذونها من دون رحمة، فقط لأنها برزت في بقعةٍ مظلمة، لم أستطع إنقاذها فقط سقيتُ ترابها الجاف دموعًا ودمًا؛ فلظى حسرتها لعب بروحي وجرى فيها كجريان شعلةٍ صغيرة في حقلٍ متهشم...

لستُ معاقًا

من أعظم الترهات التي انتشرت في الآونة الأخيرة كلمة إعاقة، التي لا تمسُّ الواقع بصِلة؛ فبسببها انتشر جيلٌ لا يعلم أن هذه الكلمة استُحدِثتْ للضعفاء؛ فما يُعيق المرء ليس النقص الذي بجسده بل الذي أحاط تفكيره فجعله أجوف، ودار بقلبه فجعله خاويًا؛ فالمرء قادر على تغيير الكون فقط بتفكير إيجابي وقلبٍ نقي يؤمنُ بدعواه ويثق بها، فلا يوجد شخص معاق؛ إنما يوجد تفكير معاق ومجتمع مُعيق لا غير.

كُن

جميعنا نمرُّ بأيام قاسية، قد ننام بحزنٍ هاربين من الواقع، ولكن إلى متى؟

يجب أن نبحث في وسط الظلام عن بقعة ضوء وبصيص أمل؛ لنتبعهما ونتمسك بهما، فمهما اشتد أمرها ستفرج، فقط قف على قدميك، قاوم وقاوم أكثر حتى تصفعك الدنيا بقوةٍ فتسقطك أرضًا، ومِن ثَم تصنع منك إنسانًا قويًّا صلبًا لا ينكسر بسهولة، وبعد كل انكسار عشته ستوقظك الأقدار بتغيير رباني بين الكاف والنون، أمر ربّ الكون أن يكون...

انقطاع

أحيانًا نلتزم الصمت ونجتنب النقاشات، ليس لضعفٍ منا؛ بل لأننا نعلم أن ذاك النقاش لا جدوى منه، فكلانا يستمع لكلمات الآخر كما لو أنها مبعثرة، تتعالى الأصوات فنتظاهر بأننا اقتنعنا وكل منا متحفظ بقناعاته، ليس لأننا لا نسمع أو لا نعقل، فقط لأننا لم نتقبل كلمات بعضنا؛ فبدونا وكأن حبال تواصلنا قطعت، ولربما هي قطعت حقًّا منذ زمن!

عجباً

غريب حالنا نحن البشر؛ نهتم بمن لم ينتبه لوجودنا ولا نُعير انتباهًا لمن يهتم بنا وأحيانًا لا نعلم به ذاتًا، نلوم الأول لأنه لم يهتم بنا وننسى الثاني الذي ينتظر منا فقط كلمة لإسعادهِ وتغيير مِزاجه...

اللؤلؤ المكنون

إن وجدتَني أبحث عن الآمان وسط الحروب، عن العمار بين كل الدمار، عن الحب وسط كل الكراهية التي امتلكت البشر، عن اللين بين تلك القلوب القاسية، عن أحلامنا التي أُجهِضت قبل أن تولد، متمسكةً بالأمل رغم كل الألم؛ فلا تعجب لأمري ولا تظنني مجنونة، فمع ربّ الحال لا محال، مثلما أوجد موسى نبيًّا من قصر فرعون، وجعل يوسف عزيزًا بعد السجن وزرع في محمد -صلى الله عليه وسلم- نورًا أضاء ظلمات العالم وهو يعيش في مستنقع الجهل والشرك؛ فلن يصعب عليه أمرنا.

يا ليت

ليتك تكون مكاني لتعلم أني لا أمثل الحزن ولا الكآبة عنواني، ولكن مخاض الدنيا ولد كمدًا بين أضلعي وأشعل نارًا في جوفي لن تطفئها أزماني.

حُسن الاختيار

ابحثي عن ذاك الذي يخاف الله فيك، الذي يغارُ عليكِ لا يشك بكِ، ذاك الناضج الذي يتقبل تقلباتك وأفكارك، يقنعكِ بأفكاره ويطرح عليك طريقة تفكيره ولكن لا يجبرك عليها، يخاف أن يحزنك أو يضع همًّا وبيلاً على قلبك أكثر من خوفه من المجتمع، خذي ذاك الذي يعود معتذرًا لكِ في جميع الظروف بغض النظر من المخطئ، فقط لأنه لا يهون عليه ابتلال وسادتك بالدموع أو أن تنامي حزينة، ذاك الشخص الذي يراكِ مصدر لسعادته لا ناقصةً محتاجة لإكمال؛ فهو الوحيد الذي يمكنك ترك منزل والديك وحياتك الرغيدة معهم لأجله، هو الذي سيكون لك السند والعون إذا جار الزمان عليك، ولا تقتربي من أشباه الرجال الذين يحاولون إثبات رجولتهم على اِمرأة.

نقطة وقوف

رغم أنه المذنب لكنهم يضعون الذنب عليّ، لمَ؟ لأنني أنثى ويجب أن أحتمل سفاهته وتقصيره، فهو دائمًا على صواب، وحين أطلب الطلاق أكون المخطئة وبعدها يذهب هو لإكمال حياته، أما أنا فينظر لي كما لو أنني أتيت بفاحشةٍ -معاذ الله- يتشتت أبنائي فأكون أنا السبب في ذلك لأنه هو رجل فلا يخطئ، إلى هنا وانتهى، أنا لستُ ناقصة ليكملني أجوف مثله، لستُ مجبرة على احتماله ما لم يغير من نفسه ويهذبها، ففي نهاية الأمر هو مجرد ذكر، أما أنا فوصية خير الأنام محمد -صلى الله عليه وسلم-.

حنين

أشتاق لرائِحة المطر حين يعانق تراب وطني، أشتاق لرائِحته حين يتصادم مع أمواج بحره، أحنُّ لصوتِ عجلات عربة البيع ورؤية الأطفال والرجال يذهبون للصلاة في يوم الجمعة والأعياد، أشتاق لشارعنا وضجيج الجيران، أنا حقًّا أشتاق لوطني بعدما أصاب برد الغربة جوفي الذي أصبح فارغًا لا يحوي غير صفير الذكريات.

لم يفُت الأوان

"فاتها القطار": من العبارات الحمقاء المتداولة بيننا؛ فأنا أفضِّل فوات القطار على أن أركبه دون معرفة وجهته، فلا مرحبا بقطارٍ سيتوقف بي بأرضٍ قاحلة يحيطها الدجى، فلمَ العجلة؟! فهو ليسَ سِباقًا لأن الله -عز وجل- سخر موعدًا مناسبًا لرحلة كلٍّ منا، لا تتهور وتستعجل كيلا تركب القطار الخطأ، وحينها لن يكون أمامك خيار؛ إما إيقافه في منتصف الطريق أو الإكمال لوجهةٍ ليست لك...

خلف الصَّمت

إياك أن تتهم شخصا مريضا نفسيًّا بالوهم، فلا أحد منا يعلم مدى ألمهم، ولا أحد يستطيع احتماله، فقد تدور بداخله ملايين الكلمات بينما هو صامت، قد يكون وحيدًا في حين أنه جالس مع مئات الأشخاص، لا أحد يستمع لأنينه، لا أحد يصدق كلماته، وكم هو متعب فاختار الصمت حلاًّ له، قد تبدو هيئته سليمة، ولكن جرب النظر داخل عينيه لترى دوامات وانهيارات أزلية لم يتمكن من الخروج منها، ليس بهراء ولا وهم؛ هو حقًّا متعب، هو بحاجة لمن يصدق ذلك لا غير.

رُوح

الثقة ليست بشيء عادي؛ هي كروح المرء تمامًا، تُعطى للشخص مرةً واحدة لا غير، وإن خسرها لا تُرجع له، ومهما حاولنا أن نوهِم أنفسنا بأننا سنعطي فرصة جديدة لمن خان ثقتنا فسنجد هذا هراءً فارغا لا جدوى منه؛ فسرعان ما تبدأ الشكوك ببناء قصورٍ بداخلنا، فتتغلغل بكلِ بقعةٍ فينا سكنتها الثقة يومًا، ولن نصدق كلامه فهذه فطرتنا.

إن أعطاك أحدهم ثقته فصُنها واحرص عليها؛ لأنه أعطاك قطعة من ذاته إن خنتها فستترك فيه جرحًا لن يلتئم أبدًا، وسيعيش في مستنقع الشك الحالك طيلة حياته.

حقيقة

سَرقتِ الأيام طفولتنا ببهجتها وبراءتها، ولكن لم تستطع سرقتها من روحنا، فما زال يُبكينا صوت الشجار ويخيفنا الصراخ العالي، نبتسم للعابرين وتفرحنا قطعة حلوى وبضع زهور قطفت من البساتين العامة، ذهبت طفولتنا، هذا صحيح، فنحن أبناء العشرين من العمر ولكنها لم تغادر أرواحنا ومشاعرنا؛ ذاك الطفل الذي يعيش بداخلنا ما زال على قيد الحياة يبحث عن وفاء الأصدقاء كما رآه في روميو، يحاول حل قضايا حياته مقتديًا بكونان، يقرأ الكثير لعله يجد نفسه في إحدى القصص كميارا، تعلّمَ من جنى أن يشكر فضل الآخرين عليه، والتمسك بالحلم والسعي إليه وإن كان مستحيلاً من لوفي، تعلم أهمية الأخوّة من سامي وفرح، وأهمية العمل الجماعي من ليو، عرف

معنى الحب دون مقابل من ريمي،
فهم من غون معنى العزم...
إن طفل سبيستون ذاك وإن تلاشى
على أرض الواقع لم يتلاشَ ولن
يتلاشى في داخلنا.

مُحيِّر

مشاعر الإنسان عبارة عن كذبة كبيرة، فهو يهذي أحيانًا بكلام لا يشعر بهِ ولا يقصده ذاتًا، ويكنُّ في نفسه ملايين المشاعر والكلمات، ينكر ما بداخله حِفاظًا على كبريائه، وينطق برصاصٍ يخترق قلب من أمامه ويهز كيانه، ويخبرك بأنه لم يقصد!
قد تراه بطبعٍ مع عائلته وآخرٍ مع الغرباء، ولكن تظل حقيقته مع ذاته فقط في أركان غرفته المظلمة وعلى فراشه المُلقى في زاوية الغرفة، يعيش انكساره وحده وينهار بشدة، ثم يخرج وكأن شيئا لم يكن بصلابةٍ وثباتٍ في عينيه.

الفصول

جاء الخريف، ظننتُ أنه أصاب الجو خارجًا فقط، ولكن بان لي أنه أصاب روحي أيضًا؛ فتساقط شعري مع أوراق الأشجار، وشحُب وجهي كشحوب السماء، أصبح مزاجي متقلبًا كجو الخريف تمامًا، وها أنا ذي منتظرة الشتاء بأمطارٍ من المعجزات، فتتفتح بعدها أزهار الربيع في روحي مُعلنةً بداية صيفٍ جديد مُشرقةً شمسه الدافئة على قلبي المظلم؛ لتنيره وتُئنس وحدته.

رسالتك

لن أخبرك بقصة نجاح أحدهم أو عن إصراره وكيف تخطى كل العقبات، كلاّ، لن أروي لك بطولاتهم وإنجازاتهم؛ بل سأقول لك: عِش حزنك كما ينبغي لك، ابكِ ما شئت، وأغلق على نفسك باب الغرفة الوقت الذي تريده، ولكن ما أريده منك الجلوس مع نفسك قليلاً، خذ نفسًا عميقًا، اسأل ذاتك ماذا تريد، اسمعها وأعطها فرصة، اصغ إليها، لا تُعرض عنها كما فعل الآخرون، واعلم أننا لم نُخلق عبثًا، حاشى الله أن نكون كذلك، لكل منا رسالته في الكون، والإنجاز العظيم أن يدرك المرء رسالته

ويسعى لنشرها قبل فوات الأوان، لا تنظر لهذا وذاك فأنت مختلف وقدراتك مختلفة، فقط ابحث عن سبب خلقك في هذا الكون العظيم والرسالة التي يجب عليك إبلاغها للورى، وانطلق حتى ترقص جوارحك حبورًا لانطلاقتك، واسعَ، اسعَ، اسعَ؛ فحقٌّ نفسك عليك أن تذيقها لذة الوصول ولو بعد حين.

ختامًا

تلك البرقيات التي دارت كثيرًا، لربما بعضها
وجدتْ مستلميها، وبعضها ما زال تائهًا،
ولكن ما يعنيني في الأمر أن تغير نفسًا
للأقوى وتوقظ غافلاً كان في سِنة.

حَاكِمة يُوسُف السَّنفاز

